الدرس التاسع

الظالمون يوم القيامة

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (إبراهيم: ٤٢-٥٢) .

مصير الظالمين :

يأتي الشَّوط الأخير من هذه السورة الذي يشتمل على آياتٍ كلِّها وعيد ، نحن نعلم أن القرآن دائمًا ينزل بين الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، ولكن هذا

الشوط من الآيات كلُّه وعيد وتخويف ؛ لأنه يتعلَّق بمصاير الظالمين ، ولا نجد كتابًا كالقرآن اهتمَّ بمحاربة الظلم ، ومقاومة الظالمين ، والتَّحذير من شرِّهم ، وما أعدَّ الله لهم من سُوءِ العقاب في الدنيا والآخرة ، لأنَّ القرآن الكريم يهتمُّ بهذه القضية غايةَ الاهتمام .

مَنْ قرأ القرآن مكيَّه ومدنيَّه وجد فيه العناية بكراهية الظلم ، وما ينتظر الظالمين من سُوء المصير في الأُولى وفي الآخرة ، ولذلك تكرَّرت كلمة (الظلم) باشتقاقاتها المختلفة : الماضي والمضارع ، واسم الفعل ، والفعل المبني للمعلوم والمجهول ، ظَلَم وظُلم ، ويظلم ، والظالمون والظالمين ، عشرات بل مئات الآيات الكريمة في هذه القضية ؛ لأنَّ الظلم هو أساس خراب الدين والدنيا معًا ، والإسلام يحبُّ من المسلم ألا يكون ظالمًا ، وألا يكون عَونًا لظالم ، فلا يكفي من المسلم ألا يكون ظالمًا ، بل لا يكن ظالمًا ، ولا يكن سندًا لظالم ، لا يكن له عونًا ، بل لا يركن إليه ، مجرَّد الركون ـ أي الميل للظَّلمة ـ يُعرِّضك للخطر ، للنار ، كما قال الله تعالى : ﴿ **وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ** ﴾ (هود:١١٣) .

عاقبة الظلم :

الظلم سبب الهلاك في الدنيا : ﴿ **وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا** ﴾ (الكهف:٥٩) .

سببُ الخراب ـ خراب الديار والبيوت ـ كما قال تعالى : ﴿ **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ** ﴾ (النمل:٥٢) .

الظلم سببُ كلِّ شر ، ولذلك أعلمنا القرآن : ﴿ **إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ (الشورى:٤٠)، و﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾(المائدة:٥١)، وأنَّ الله لا يجعل

للظالمين. فلاحًا : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (الأنعام:٢١،١٣٥) (ويوسف:٢٣)، (والقصص:٣٧) ، ﴿ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴾ (طه:١١١) .

آياتٌ كثيرة تحذِّر من الظلم ، ومن شرور الظالمين ، وتعدُهُم بأسوأ المصير في الدنيا وفي الآخرة .

جزاء الظالمين في الدنيا والآخرة :

ربما لم يصِب الظالمين ـ في بعض الأحيان ـ فـي الدنيا جزاءُ ما ظلموا ، أحيانًا ـ بل في أغلب الأحيان ـ الظالم ينال جزءًا من مصيره في الدنيا قبل الآخرة ، هذا الأغلب ، ولكن أحيانًا يترك الله الظَّلَمَة إلى الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ (الأعراف:١٨٢،١٨٣).

يُملي لهم : يُمهلهم ، ولذلك شاع حتى في لغتنا العامية : أنَّ الناس يقولون : (يُمْهل ولا يُهمل) . يُمْلي لهم : يُمهلهم فترةً من الزمان ، ثم تأتي نقمةُ الله تعاجلهم بما لا يخطر ببالهم . وفي هذا جاء الحديث الصحيح : « إنَّ الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلته ، ثم قرأ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾ (هود:١٠٢) [(١)] » . يُملي لهم ، ثم يأخذهم أخذًا أليمًا شديدًا ، أخْذَ عزيز مُقْتدر ، هذا صُنْع الله عزَّ وجلَّ ، وهذا رأيناه في دنيانا ، رأينا كثيرًا من الظالمين ، يلقَوْن مصارعهم أمامنا ، وكانوا يظنُّون أنهم بعيدون عن العقوبات ، مطمئنون إلى أنهم بمنجاة .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في التفسير(٤٦٨٦) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٣) ، عن أبي موسى الأشعري .

كنا في السجن الحربي ، وكان قائد السجن حينما يقول البعض : يا رب ، يا رب . يقول : هات لي ربَّك ، وأنا أضعه في زنزانة . وبعد هذا مات شرَّ ميتة ، ومُزِّق شرَّ ممزَّق[1]!

إجابة دعوة المظلوم :

أحيانًا ينتقم اللهُ سبحانه وتعالى من الناس في هذه الحياة ، يأخذ بحقِّ المظلومين ؛ لأنَّ المظلوم يدعو والله سبحانه وتعالى يستجيب له ، كما جاء في الحديث : « ثلاثة لا تُرَدُّ دعوتهم : الإمامُ العادل ، والصائمُ حين يفطر ، ودعوة المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام ، ويقول الربُّ : وعزَّتي وجلالي لأَنْصُرَنَّك ولو بعد حين »[2]. المظلوم يستجيب الله تعالى له :

لا تظلمنَّ إذا ما كنتَ مقتدرًا ... فالظلمُ ترجعُ عُقباه إلى النَّدم
تنام عيناك والمظلومُ مُنتبهٌ ... يدعُو عليك وعينُ الله لم تَنمِ[3]

أخذ الظالمين بغتة :

كثيرًا ما يعيش الظالمون في بُحبُوحة من النِّعم ، ويُخيَّل إليهم أنَّ الأقدار نَسِيتهم : ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ** ﴾ (الأنعام:٤٤) .

---

(١) حمزة البسيوني الذي كان مديرًا للسجن الحربي في عهد عبد الناصر ، وقد عُرف بفسقه وتفننه في ممارسة التعذيب ضد المعتقلين . مات ميتة شنيعة سنة١٩٦٩م ، إذ اصطدمت سيارته وهو خارج من القاهرة إلى الأسكندرية بسيارة لنقل أسياخ الحديد المخصص للبناء ، فمزقت ضلوعه ، ودخل سيخ في رقبته ، وأخذ يخور كما يخور الثور المذبوح .

(٢) رواه أحمد (٨٠٤٣) وقال مخرجوه : صحيح بطرقه وشواهده ، والترمذي في الدعوات (٣٥٩٨) وقال : حديث حسن ، وابن ماجه في الصيام(١٧٥٢) ، عن أبي هريرة .

(٣) ينسب إلى : علي بن أبي طالب .

يقول الله تعالى في شأن هؤلاء : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ، أغدق عليهم من الخيرات والنعم عن يمين وشمال ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ (الأنعام:٤٤) ، ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع .

لكلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نقصانُ فلا يُغرَّ بطيبِ العيشِ إنسانُ[١]

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الأنعام:٤٥).

وانظر إلى كلمة : ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ، قَطْع دابر الظالمين ، يدلُّ على أنَّ هنالك ربًّا لهذا العالم يُدبِّره ، ولا يتركه للجبابرة والظالمين والمستبدِّين والمستكبرين في الأرض ، يعيثون في الأرض . هنا يتدخَّل القدر الإلهي ، فيذيقهم العذاب في الدنيا قبل الآخرة .

ولكن أحيانًا يتركهم الله إلى الآخرة ، مَنْ أراد الله أن يشتدَّ عذابه ويدَّخر له كلَّ العذاب في الآخرة ، لا يُعذِّبه في الدنيا ، مَنْ عذَّبه في الدنيا خفَّف عنه ، ولكن الذي يدَّخر له كلَّ العذاب في الآخرة ، يتركه إلى النهاية ، ويموت وهو حاكم وظالم ، وهو غنيٌّ عنده من الأموال ما عنده ، وعنده من الخدم والحَشَم والقصور ، وقد ظلم الناس وبغى في الأرض بغير الحقِّ ، ولكن يكون العقاب في الآخرة .

كمال العدل الإلهي :

الآخرة هي التي يتحقق فيها كمال العدل الإلهي ، الدنيا قد لا يحدث فيها كلُّ العدل ، قد يظلم الظالم ، ويقتل القاتل ، ويسرق السارق ، ويستبدُّ المستبدُّ ، ويعبث بأرزاق الناس وأموالهم وأعراضهم ، ويفعل ما يفعل ، ويسفك الدماء ، ويظنُّ أنَّ يد العدالة قد غَفَلت عنه ، وأنَّ العدالة في الدنيا لم تَنَله ، فكذلك العدالة في الآخرة .

---

(١) من شعر : أبي البقاء الرندي .

وهَيْهات هَيْهات ، الآخرة هي التي يقوم فيها العدل والقسطاس المستقيم ، توفّى فيها كلُّ نفسٍ ما كسبت :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾

(الزلزلة:٧،٨) .

مَن لم يَرَ جزاءه في الدنيا ، وقد فعل الخير ، ولم يَلْقَ إلا التنكُّر والاضْطهاد ، وربما قتله الناس ظلمًا ؛ سيجد جزاءَه على أعماله الصالحة في الآخرة .

ومَن أفسد في الأرض ، فظلم وطغى وبغى على عباد الله ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وأكل حقوق الناس ، سيأخذ جزاءَه في الآخرة ، العدل الإلهي يتحقَّق في هذه الدار : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۝ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ (ص:٢٧،٢٨) .

هيهات ، لا يمكن ، ولذلك الظالمون ينتظرهم يوم هائل .

ومن هنا قال الله تعالى لرسوله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ، لا ، الله ليس بغافل عنهم ، إنه يراقبهم ، إنه مُطَّلع عليهم ، إنه يعلم سرَّهم ونجواهم ، إنه يعلم السرَّ وأخْفى ، ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك:١٣،١٤) ، إنه يؤخِّرهم وهو عالمٌ بهم .

المقصود بالخطاب في قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا ﴾ :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

الخطاب للنبيِّ عليه الصلاة والسلام ، ولكن المقصود غير النبيِّ ، (إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة) . الرسول لا يظنُّ أبدًا أن الله غافل . ولكن هذا كما جاء في

الآيات الأخرى : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (يونس:١٠٥) ، ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ (الشعراء:٢١٣) إلخ ، فالمقصود غير النبيِّ ﷺ .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ ، لا والله ما هو بغافلٍ ، إنه مُطَّلع على كلِّ ما يفعلون ، وفي الآية تهديدٌ للمشركين ، وتسليةٌ للمؤمنين .

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾

حال الظالمين في الآخرة :

وقد وصف الله حال الظالمين في ذلك اليوم ، فذكر أنها خمس أحوال ، كلُّ حال تُنبئ عن شدَّة ما يلقَونه من هول وفزع .

الحال الأولى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ (إبراهيم:٤٢) ، إنَّه يومُ القيامة ، يوم تَشْخَص فيه الأبصار ، العيون مفتَّحة تنظر أمامها ، متجمِّدة ، متَّسعة الأحداق ، كأنها لا ترى .

والحال الثانية : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ : مسرعين ، كما قال تعالى : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ (القمر:٧،٨) .

والحال الثالثة : ﴿ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾ : هل مقنعي : خافضي رؤوسهم ، أو رافعي رؤوسهم ؟!

اختلف المفسِّرون ، وعلى كلِّ حال فهم لا يستطيعون أن يتحرَّكوا لا يَمْنةً ولا يَسْرةً ، إن كانوا رافعي رؤوسهم أو خافضيها .

والحال الرابعة : ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ : الأبصار زائغة لا تتحرّك ، أطرافها كأنها مُسمَّرة مجمَّدة من هول ما هم فيه .

والحال الخامسة : ﴿ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ : خِلْوٌ من كلّ شيء ـ فراغ ـ كما يقولون عن الرجل الجبان : إنَّ قلبه فارغ . قلبه خِلْوٌ من كلِّ شيء ، وهؤلاء من هَوْل القيامة ، جعلهم كما وصفهم الله . قلوبهم كالهواء ، ليس فيها تفكير ولا تدبير ، من شدَّة هَوْل الموقف .

أوصاف القرآن ليوم القيامة تجعل هذا اليوم يومًا عظيمًا : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (المطففين:٤-٦) ، ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج:٢) ، هذا هو هول اليوم العظيم الذي ينتظر الظالمين .

المراد بالظلم في هذه الآيات :

هل الظلم هنا هو الشِّرك ، كما قال تعالى على لسان لقمان : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان:١٣)؟

هل ظُلْم هؤلاء أنهم أشركوا بالله ما لم ينزِّل به سلطانًا ، وعَبَدوا مع الله أو من دونه آلهةً أُخرى لا تُبصر ولا تسمع ، ولا تَضُرُّ ولا تنفع ، ولا تَملْك مَوْتًا ولا حياةً ولا نشورًا ، هل هذا هو الظلم ؟

أم الظلم هو الاعتداء على خَلْق الله ، على حُرُمات الناس ، على أنفسهم ودمائهم وأموالهم وأعراضهم وذراريهم؟

الظلمُ يشملُ هذا وهذا ، والله تعالى يُحرِّم الظلم بمعنى الشِّرك ، ويُحرِّم الظلم بمعنى الاعتداء على خلق الله .

خطورة ظلم الضعفاء :

لا يُجيز الإسلامُ أن يعتديَ أحدٌ على أحدٍ ، وخصوصًا العدوان على الضعفاء ، وكُلّما كان الإنسان أضعف كان ظلمه أشدّ وإثمُه أعظم .

ومما يُروى في الحديث القدسي : «اشتدَّ غضبي على مَنْ ظلم مَنْ لا يجد ناصرًا غيري»(١).

هناك مَنْ يُظلم ولكن له قبيلة تسنده ، له ظهر . كما يقول الناس : مَن له ظهر لا يُضرَب على بطنه . ولكن هناك مَن ليس له ظهر ، وليس له سند . هذا ظلم من أشدِّ الظلم ، وعقابُه من أشدِّ العقوبات عند الله عزَّ وجلَّ .

كلُّ أنواع الظلم مُحرَّمة ، ظلمُ النفس حتى بالمعصية ، كلُّ هذا يدخل في الظلم ، حينما أسكن الله آدم وزوجته الجنَّة قال له : ﴿ **وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ (البقرة:٣٥) ، فالظلم هنا ظلم النفس بالمعصية ، ولذلك حين أكل آدم وحواء من الشجرة : ﴿ **قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾ (الأعراف:٢٣) .

أنواع الظلم :

الظلم أنواعه مختلفة ، كما جاء في بعض الأحاديث : «ظلمٌ لا يغفره الله» : الشِّرك ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ** ﴾ (النساء:٤٨).

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير (٧١) عن علي بن أبي طالب ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٧٢/٤) : رواه الطبراني في الصغير والأوسط ، وفيه مسعر بن الحجاج النهدي . وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١٣٥١) .

« وظلم لا يتركه الله » : ظلم العباد بعضهم لبعض ، هذا لا يُترك ، لأنَّ كلَّ واحد متمسِّك بحقِّه ، يقول : حقِّي حقِّي . لا يتنازل أحدٌ لأحدٍ يوم القيامة .

« وظلم لا يبالي به الله »[1] : ظلم العباد فيما بينهم وبين ربِّهم .

كل أنواع هذه المظالم مرصودة يوم القيامة ، مؤخَّرة ليوم القيامة .

إنذار الناس من يوم إتيان العذاب :

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾

الخطابُ للنبيِّ عليه الصَّلاة والسلام ، أنْذِر الناسَ كلَّ الناس ، أو أنذر هؤلاء الظالمين؟! اللفظ يحتمل . وقد بعثه الله بشيرًا ونذيرًا ، ولكن كما قلت : هذه الآيات في مقام الوعيد لا تقتضي التَّبشير إنما تقتضي الإنذار : ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ ، حينما يكون الناس في موقف الظلم ، موقف الطغيان لا يليق بهم إلا الإنذار .

والسورة حدَّثتنا عن الظالمين : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (إبراهيم:١٣) ، وحدَّثتنا عن عاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، وبذلك فاللائق بهذا الموقف ، وبهذا المقام الإنذار ، لكلِّ مقامٍ مقال ، وهذا المقام يقتضي الإنذار لا التَّبشير .

---

(١) رواه البزار (٦٤٩٣) ، وأبو داود الطيالسي (٢٢٢٣) ، وقال الهيثمي في المجمع (٦٢٩/١٠) : رواه البزار عن شيخه أحمد بن مالك القشيري ولم أعرفه وبقية رجاله قد وثقوا على ضعفهم ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٦١) ، عن أنس بلفظ : « الظلم ثلاثة . . . »

طلب التأخير يوم القيامة إلى أجل قريب :

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾

أين كنتم من قبل؟! حينما جاءهم العذاب ، وحقّت عليهم كلمة الله ؛ قالوا : ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ ، أمهلنا ، أعطنا فُرصةً ثانية : ﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ ، نجب دعوة التوحيد ، ولا نشرك بك شيئا ، ونتّبع الرسل ، ولا نستكبر عليهم . هكذا نجد الناس يَتمنّون هذه الفرصة ، حينما فاتتهم .

ينبغي أن يكون القول ويكون العمل في الوقت المُجْزيّ ، إنما إذا قلتَ قولاً بعد فوات الأوان فإنه لا يجدي شيئًا ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ ﴾ (الطور: ١٦) ، لا ينفعكم الصبر .

الصبر ينفع في وقت ، وفي وقت لا ينفع ، التّمنّي ينفع في وقت ، وفي وقت لا ينفع .

تمنّي التأخير حين الاحتضار وفي الموقف وبعد دخول النار :

بعض الناس حين يأتي الموت حينما يحتضر ، يتمنّى أن يُمهله الله وقتًا آخر ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

(المنافقون: ٩-١١).

اتركني شهرًا ، اتركني أسبوعًا ، اتركني يومًا ، اتركني ساعةً ، اتركني نصف ساعة ، اتركني خمس دقائق ، يتمنّى أن يُمْهَل أيَّ وقت : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ (المنافقون:١١) ، انتهى الأجل فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، لا يستأخرون ساعة : أي لحظة .

وجاء أيضًا في سورة المؤمنون : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون:٩٩،١٠٠) .

يَتَمنّى الإنسان أن يرجع إلى الدنيا . قد كنتَ في الدنيا ، وكانت أمامَك الفرصة بعد الفرصة ، لكنك لم تنتفع بها !

أحيانًا يتمنّى الإنسان عند الموت ، ويتمنّى في يوم الموقف يوم القيامة ، كما في هذه الآية : ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ ، ويتمنّى بعد أن يدخل النار ويَصْطلي حرَّها وعذابَها ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا ﴾ ، أعطنا فرصة أخرى : ﴿ نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم ﴾ ، نعطكم من العمر ، ﴿ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ ، أعطيناكم عمر خمسين سنة ، ستين سنة ، سبعين سنة ، ثمانين سنة ، ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ ، وحَذَّركم وتلا عليكم آياتِ الله ، ورَغَّبكم ورَهَّبكم ، ﴿ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (فاطر:٣٧) .

بعض هذه التمنّيات ردَّ الله عليها بمثل هذه الآيات : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ ، وبعضها لم يرد عليها : ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ (المؤمنون:١٠٦-١٠٨) . انتهى الأمر ، لم يعد هناك مجال للحديث ، اخسئوا فيها ولا تكلمون .

الإنسان أمامه الفرصة في الدنيا أن يتوب من معاصيه ، أن يثوبَ إلى رُشده ، أن يرجع إلى ربِّه ، أن يقف على بابه ، أن يقول ما قاله أبوه آدم وأمُّه حواء : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف:٢٣) .

ولكنَّ الإنسان ضَيَّع هذه الفُرصة ، وجاء يوم القيامة يقول : ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ ، والله تعالى يقول في شأن هؤلاء : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (الأنعام:٢٨) .

هم يقولون أخِّرنا ، لكنَّهم حين يعودون ستغلِبُ عليهم أنفسهم الشريرة ، ويعودون إلى ما كانوا عليه .

قسم الكفار بعدم بعثهم بعد الموت :

﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾

ردَّ الله عليهم : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾!! أتقولون هذا الآن ونسيتم أنكم حَلَفتم بالأيْمان المُغلَّظة أنكم لن يزول عنكم ما أنتم فيه من نعيم ، حتى ولو متُّم لن تدخلوا النار ، ولن يعاقبَكُم الله!!

بعضهم يقول : إنه لن يبعثهم : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ (النحل:٣٨) .

والبعض قال : ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ (الكهف:٣٦) ، حتى ولو متُّ ورجعتُ ، لأجدنَّ خيرًا ممَّا كنتُ فيه منقلبًا ـ خيراً من الحديقة ، من جنَّته هذه ، سوف تكون آخرتي أحسن من الأولى !

هؤلاء مغرورون ، غرَّتهم أنفسهم ، وغرَّتهم الأمانيُّ ، وغرَّهم بالله الغَرور .

السكن في مساكن الظالمين وعدم الاعتبار بهلاكهم :

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾

سكنتم في مساكن الظالمين الذين هلكوا من الأمم السابقة ، التي كفرت بالله ، وكذّبت رُسَلَه ، وفعلت ما فعلت من مظالم ومآسٍ ، حتى نَزَل بهم عقاب الله ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ (إبراهيم:١٣،١٤) .

الظالمون سكنوا بعد ذلك ، سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم كعاد وثمود ، أما المؤمنون فاعتبروا .

﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾

لم يعتبر الظالمون والمشركون بدروس الماضين ، لم يأخذوا درسًا لما حدث بمَن قبلهم ، فأصابهم ما أصاب من قبلهم : ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (هود:٦٠) ، ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ (هود:٦٧،٦٨) .

أراكم الله كيف أهلك الظالمين : ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ تبيَّن لكم كيف نكَّلنا بهم وعذبناهم على جرائمهم .

﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾

﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ ، في القرآن الكريم ، وحتى في الأمم السابقة ؛ لأنَّ هذا سيكون للظالمين في كلِّ الأمم ، كلُّ الظالمين في الأمم سيُؤخِّرهم الله ليومٍ تَشْخَصُ فيه الأبصار ، ليس يوم القيامة للظالمين فقط من أمَّة محمد ، بل كلُّ الأمم السابقة منذ خلق الله آدم وإلى يوم القيامة ، سيُحْشَرون في هذا اليوم ، وينالُ كلَّ

منهم عقابَه ، وكلٌّ منهم ضُربت له الأمثال ، وقُصَّت عليه القصص ، وجاءته العِبَر : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ (القمر:٤،٥) فلم ينفع كل هذا فيكم .

مكر الظالمين :

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ .

هؤلاء الظالمون مكروا مكرهم الفظيع لإبطال الدعوة ، وكادوا كَيْدَهم لقمع دعوة رسل ربِّهم ، وللتخلُّص منهم ، ولكن هذا المكر لم يَغِب عن الله عزَّ وجلَّ .

﴿ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ ، الله يعلم مكرهم ، ويسمع ويرى ويُسجِّل عليهم ، ﴿ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ ، معلوم عند الله عزَّ وجلَّ ، ولكنَّ مكر الله أقوى من مكرهم ، وكَيْد الله أعظم من كَيْدهم ، هو أعظم مكرًا وأسرع مكرًا : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ (يونس:٢١) ، أسرع وأقوى ، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (الأنفال:٣٠) ، مكروا بالمؤمنين ، ومكروا بأهل الحقِّ .

المكر الضعيف :

﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾

هناك قراءتان : قراءة الجمهور : ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ ، وقراءة أخرى : (لَتَزُولُ) .

(إنْ) في القراءة التي نعرفها ـ قراءة حفص هذه ـ نقول عنها : إن النافية ، ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر:٢٣) ، يعني : ما أنت إلا نذير .

﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ ﴾ ، يعني : وما كان مكرهم لِتَزولَ منه الجبال ، فـ هذه ﴿ لِتَزُولَ ﴾ ، يسمُّونها علماء النحو : لام الجحود . تأتي بعد (ما كان) أو (لم يكن) ، ﴿ لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ (النساء:١٣٧) ، نفـي الشأن هـذا لا يحصـل ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ (الأنفال:٣٣) ، هذا لا يمكن أن يحدث ، نفي الشأن ليس مجرَّد نفي الفعل ، وهنا يقول : وما كان مكرهم لِتَزُولَ منه الجبال ، مكرهم هذا مكرٌ ضعيف ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء:٧٦) ، أي في مقابل كَيْد الله ، ومكر هؤلاء في مقا مكر الله عـزَّ وجـلَّ ، لا يمكن أن تزول منه الجبال ، وهذا دليلٌ على أنَّ دين مح ﷺ ، ورسالة محمد في ثبات الجبال ، في ثبات هذه الشُّمِّ العوالي الرواسخ ، لا يمكن أن يزولَ بمكر الماكرين ، ولا بكيْد الكائدين ، ولا بتآمر المتآمرين .

المكر العظيم :

وعلى القراءة الأخرى : (وإنْ كَانَ مكرهم لَتَزولُ منه الجبال) . هؤلاء يقولون : إنْ مخفَّفة من الثقيلة ، أي : وإنَّ مكرهم لَتَزول منه الجبال ، فمكرهم مكرٌ عظيم شديد يهدُّ الجبال ويزلزلها ، كما قال الله عن قوم نوح : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ (نوح:٢٢) ، هذا مكرٌ عظيم يمكن أن تزول منه الجبال ، كما نرى الآن مكر اليهود ، ومكر الصليبيين ، ومكر أعداء الإسلام ، الذين يُعِدُّون الخطط ، وينظرونَ إلى المستقبل ، ويضعونَ خُططًا لسنين عديدة ، والمسلمون غافلون ، مَكْرُ هؤلاء لَتزولُ منه الجبال ، ولكنَّ هذا المكر حتى وإن كان تزول منه الجبال ، ليس له عند الله قيمة ؛ لأنَّ مكر الله أقوى من مكرهم ، وكَيْد الله أقوى من كيدهم : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ (الطارق:١٥-١٧) .

كَيْد الله أعظم : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (النمل: ٥٠-٥٢) .

الله سبحانه لا يخلف وعده :

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾

إذا رأيتَ مَكْرَ الماكرين ، وتآمر المتآمرين على الإسلام وأهله ، فلا تحسبنَّ الله مُخْلف وعده رسلَهْ ، والله وعد رسلَهْ بالنَّصر في الدنيا ، وبعقاب أعدائهم في الآخرة سبحانه وتعالى لا يُخْلف وعده ، بخلاف الإنسان الضعيف ، فإنه يخلف وعده .

لماذا يُخلف الإنسانُ وعَده؟ الإنسان يخلف وعده لسببين : إمَّا لعجزه ؛ لأنه لا يستطيع أن يُنفِّذ ما وعد ، وعد بأن يفعل كذا . . وبعد ذلك عَجَز عن تنفيذ الوعد ، أو لكذبه ، وعد ولم يصدق الوعد ، والله سبحانه وتعالى يستحيل عليه العجز ، ويستحيل عليه الكذب : ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ (الكهف:٩٨) ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ (آل عمران:٩) ، ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم:٦) .

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ ، الله سبحانه سينصر رُسُلَه ، ولكن ينصرُهم في الوقت الذي يشاء ، إنَّ الله لا يَعْجَل لِعَجَلة أحدكم .

كان بعض الصحابة يأتون إلى النبيِّ ﷺ يشكون إليه تسلُّط الكافرين عليهم ، واضطهادهم لهم . خباب بن الأرت ، جاء يشكو إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّد بردة له في ظلِّ الكعبة ، وقال : يا رسول الله ، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ وكان له مولاة تعذِّبه وتُؤْذيه وتكويه بالنار .

فقام ﷺ وقال : « كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض ، فيُجعل فيه ، فيُجاء بالمنشار ، فيُوضع على رأسه فيشق باثنتين ، وما يصدُّه ذلك عن دينه ، ويُمشَّط بأمشاط الحديد ، ما دون لحمه من عَظْم أو عَصَب ، وما يصدُّه ذلك عن دينه ، والله لَيُتمَّنَّ هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوت لا يخاف إلا الله ، أو الذئبَ على غنمه ، ولكنَّكم تستعجلون »(١) .

النصر آتٍ : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ ، لا يمكن أن يُخْلف الله وعده ، ولكن كلُّ شيء بأوانٍ ، كلُّ شيء في وقته ، كلُّ شيء عنده بمقدار ، شيء عنده بأجل مسمًّى .

الله عزيز ذو انتقام :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾

الله سبحانه وتعالى عزيزٌ غالبٌ ، لا يُغْلَب ولا يُغَالَب ، صاحبُ العزَّة والقوَّة ، المنيع الذي لا يُقْهَر ، وهو ذو انتقام ، ينتقم من أعدائه بما يشاء من الأسباب والوسائل ، وفي الوقت الذي يشاء ، وبالكيفيَّة التي يشاء : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ .

المنتقم من أسماء الله عزَّ وجل :

الإمام ابن القيم يقول : (أسماؤه تعالى منها ما يطلق عليه مفردا ، ومقترنا بغيره ، وهو غالب الأسماء ، كالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم ، وهذا يسوغ أن يدعى به مفردا ، ومقترنا بغيره ، فتقول : يا عزيز ، يا حليم ، يا غفور ، يا رحيم .

---

(١) رواه البخاري في المناقب(٣٦١٢) ، عن خباب بن الأرت .

وأن يُفرد كلُّ اسم ، وكذلك في الثناء عليه ، والخبر عنه بما يسوغ لك ، الإفراد والجمع .

ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده ، بل مقرونا بمقابله ، كالمانع والضار والمنتقم ، فلا يجوز أن يُفرد هذا عن مقابله ، فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعفو ، فهو المعطي المانع ، الضار النافع ، المنتقم العفو ، المعز المذل ؛ لأن الكمال في اقتران كلُّ اسم من هذه بما يقابله ؛ لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرُّف فيهم عطاء ومنعا ، ونفعا وضرا ، وعفوا وانتقاما .

وأما أن يُثنى عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار ، فلا يسوغ ، فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد ، الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض ، فهي وإن تعدَّدت جارية مجرى الاسم الواحد ، ولذلك لم تجئ مفردة ، ولم تطلق عليه إلا مقترنة ، فاعلمه ، فلو قلتَ : يا مذلُّ ، يا ضارُّ ، يا مانع ، وأخبرتَ بذلك لم تكن مثنيا عليه ، ولا حامدا له ، حتى تذكر مقابلها)[1] .

وأنا وافقت ابن القيم مدَّة من الزمن ، وأن المنتقم ليس من أسماء الله ، ولكن حينما تأمَّلتُ في القرآن ، وجدت أنَّ صفة الانتقام وَصَفَ الله بها نفسه ، فَوَرَد في عدَّة آيات : ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (الزخرف:٢٥) ، ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الزخرف:٥٥) ، ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف:١٣٦) ، فجاء فعل الانتقام بالفعل الماضي ، وجاء بالفعل المضارع : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ﴾ (المائدة:٩٥) .

---

(١) انظر : بدائع الفوائد (١/١٧٧) .

وجاء أيضًا بصيغة : ﴿ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ في أربع آيات من القرآن الكريم :

في سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ (آل عمران:٤) .

وفي سورة المائدة : ﴿ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ (المائدة:٩٥) .

وفي سورة الزمر : ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ﴾ (الزمر:٣٧) .

وفي هذه السورة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴾ (إبراهيم:٤٧) .

وجاء بصيغة اسم الفاعل ، ولكن جاء في القرآن بصيغة الجمع : ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ (السجدة:٢٢) ، ﴿ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ (الدخان:١٦) ، ﴿ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ (الزخرف:٤١) ، فجاء بهذه الصيغة صيغة الجمع : ﴿ مُّنتَقِمُونَ ﴾ ، فدلَّ هذا على أن الانتقام يُوصَفُ به الله عزَّ وجلَّ ، وهو ينتقم ممَّن يستحقُّ الانتقام ، لا ينتقمُ من مظلوم ، لا ينتقم من مستقيم ، لا ينتقم من إنسان صالح ، إنما ينتقم من الجبابرة الذين يبغونَ في الأرض بغير الحقِّ ، الذين يَتَسلَّطون على رقاب الناس ، الذين يدَّعون أنهم آلهة في الأرض ـ لا يُسألون عما يفعلون ـ هؤلاء ينتقم الله منهم ؛ ليريَهم حقيقةَ أنفسهم ، أنهم لا يساوون عند الله شيئًا ، وأنَّ الله لهم بالمرصاد : ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴾

(الفجر:٦-١٣) .

هذا هو الانتقام : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ (الفجر:١٣،١٤)، يراقبُ كلَّ شيء ، يسمع ويَرى ، ثم يُنزل عقوبتَه بالقوم الظالمين .

تبديل الأرض والسماوات :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾

الانتقام قد يكون في الدنيا ، وقد يكون في الآخرة : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ ، هذا يومٌ عظيمٌ ، تُبدَّل الأرض غيرَ الأرض ، وتُبدَّل السماوات غيرَ السماوات . هل تُبدَّل ذوات الأرض وذوات السماوات؟ أم تبدَّل أوصاف الأرض أو أوصاف السماوات؟

هل توجد أرضٌ غير الأرض تمامًا ، وسماء غير السماء تمامًا؟ أم الأرض هي الأرض ، ولكن أوصافها تَغيَّرت؟ والسماء هي السماء ، ولكن أوصافها تغيَّرت؟

حين تقول : تركتُ فلانًا من سنين ، ثم لقيتُه فوجدتُ رجلاً غير الرجل وإنسانًا غير الإنسان . هو هو ، ولكن تركته شابًا فوجدته شيخًا ، تركته مستقيم الظهر فوجدته محني الظهر ، تركته أسودَ الشعر فوجدته أبيض الشعر .

قد يكون تغيَّر سلوكُه ، كان طالحًا فأصبح صالحًا ، كان منحرفًا فأصبح مستقيمًا ، أو بالعكس ، فهذا اسمه تغيير الأوصاف ، فهل تبديل الأرض غير الأرض بمعنى تغيير أوصافها؟ أم أنَّ الأرض تغيَّرت تمامًا ، وأصبحت أرضًا أخرى ، والسماء أصبحت سماءً أخرى؟!

أبدًا هي هي ، ولكن أوصافها تغيَّرت : ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ (طه:١٠٧) ، أصبحت غير ما كانت في الزمن الماضي ، السماء قد طُويت ، والشمس كوِّرت ، والنجوم انكدرت ، والبحار سُجِّرت ، والبحار فجِّرت . . إلى آخر هذه الأشياء ، فتغيَّرت الأوصاف .

وعلى كلِّ حال سواءٌ تغيَّرت الذات ، أو تغيَّرت الصِّفات ، فهذا شيء عظيم أن تُبدَّل الأرض غير الأرض ، وأن تُبدَّل السماوات غير السماوات ، هذا شيءٌ هائل ، هذا ما ينتظره الناس في ذلك اليوم العظيم : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (المطففين:٦) .

البروز لله سبحانه :

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

برزوا ، أي : انكشفوا . لم يعد هنالك شيء يستر أحدًا ، كلُّ شيء مكشوف ، أجسامهم مكشوفة ، وسرائرهم مكشوفة : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ (الطارق:٩)، ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (العاديات:٩،١٠) ، كلُّ شيء انكشف : ﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ (غافر:١٦) ، من الذي يدَّعي الملك؟ هاتوا الملوك الأباطِرَة والقياصِرَة والأكاسِرَة والجبابرة : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ .

الواحد القهار :

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ ، الواحد : المتفرِّد بالربوبيَّة ، الذي ليس له شريكٌ ولا نِدٌّ ولا مِثْلٌ ولا شبيهٌ ، ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص:٣،٤) ، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ (الإسراء:١١١) ، الله الواحد الأحد .

والقهَّار : الغلاَّب الذي يَقْهَر ولا يُقْهَر ، ولا يقفُ أمام قدرته شيء ، ولا يُعْجِزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ، هذا هو القهَّار . وهنا جاء هذا الاسم في وقته وفي مكانه وفي مقامه .

الرد على دعاوى المبشِّرين والمستشرقين :

المبشِّرون والمستشرقون يقولون : إنَّ إله المسلمين إله عنف ، وإله المسيحيين إله محبَّة وإله رحمة ، إنمَّا إله المسلمين إله شدَّة وإله عنف ، فوصف نفسه بالجبَّار ، ووصف نفسه بالقهَّار .

وهذا في الحقيقة افتراءٌ على الإسلام ، وافتراءٌ على القرآن ؛ لأنَّ ربَّنا وصف نفسه بالجبَّار في آيةٍ واحدة في القرآن ، في أواخر سورة الحشر : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ (الحشر:٢٣) ، مرَّة واحدة ، وهو جبَّار على المتجبِّرين ، ووصف نفسه بالقهَّار في عدَّة آيات ، وكلُّها جاءت في موضعها : ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ (يوسف:٣٩) ، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ (الرعد:١٦)، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ (ص:٦٥) .

هنا يقول سبحانه : ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ ، حتى لا يطمع الطامعون من الذين يظنُّون أنَّ آلهتهم تشفع لهم يوم القيامة : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴾ (مريم:٨١)، وليكونوا لهم شفعاء يوم القيامة ، هذا كلُّه باطل ، ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ (الزمر:٤٤) ، لا يشفع أحدٌ إلا بإذن الله ، ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ (الأنبياء:٢٨) .

ولا يشفعون إلا لأهل التوحيد ، وليس هناك غيره ، هو ملك هذا اليوم : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (غافر:١٦) ، هذا القهر في هذا المقام مفهومٌ ومعقولٌ ، وجاء في مناسبته ، وجاء في مكانه .

أما القرآن فهو يصفُ الله سبحانه وتعالى بالرحمن الرحيم ، أرحم الراحمين ، خير الراحمين ، كم تكرَّرت في القرآن أرحم الراحمين على لسان الأنبياء ؟

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٣) ، ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (يوسف:٦٤) ، ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (يوسف:٩٢) ، ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (المؤمنون:١١٨) .

وفي مائة وثلاثة عشرة سورة تبدأ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، والفاتحة : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة:١-٣) ، ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة:١٦٣) .

نحن نبدأ أكلَنا وشربنا وحياتنا بالبسملة ، نقول : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، ليُشيعَ الإسلامُ جوَّ الرحمة بين المؤمنين ، فالزعم بأنَّ إله المسلمين إلهُ شدَّة وعنف ، زعمٌ لا أساس له .

حال المجرمين يوم القيامة :

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ ﴾ ، يوم القيامة ، يوم يأتي الناسَ العذابُ ، يوم تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرض والسماوات ، يومَ البروز للهِ الواحدِ القهَّار .

ذكر الله تعالى للمجرمين أحوالا ثلاثة :

الأولى : أنهم مُقرَّنون في الأصفاد .

والثانية : أنَّ سرابيلهم من قطران .

والثالثة : أن النار تغشى وجوههم .

وقد ذكر سبحانه وتعالى أولاً وصفهم بالإجرام ، لأنَّ ما كسبوه من جرائم في اعتقادهم ، وفي أعمالهم ، وفي إفسادهم في الأرض ، هو السبب فيما ينالون من عقاب .

وقوله تعالى في الحالة الأولى : ﴿ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴾ ، بعضهم مقرونٌ ببعض في القيود والأغْلال ، كما نرى المجرمين في الدنيا حينما يساقون للمحاكمة ، حينما يُقبض عليهم مُتلبِّسين ، يُربطون بالسلاسل والأغلال والقيود ، كما جاء في سورة الرحمن : ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ (الرحمن:٤١) ، وفي سورة غافر : ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ (غافر:٧١) ، هكذا يعاملون بشدَّة وقسوة . هذه هي الحالة الأولى للمجرمين .

ثياب المجرمين :

﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾

والحال الثانية : سرابيلهم : جمع سربال ، أي ثيابهم وقُمُصهم التي تلامس أجسادهم من قطران ، القطران : هذا مركَّب كيماوي يُستخرَج من بعض الأشجار ، فيتكوَّن منه هذا المركب ، أسود اللون ، منتن الرائحة ، شديد الحرارة ، سريع الاشتعال ، كانوا يدهنون به الإبل الجربى ، لحرق الجرب بحدَّتها وحرِّها ، فهذا القطران سرابيل المجرمين - ثياب المجرمين - من هذا القَطِران ، والمراد : أنَّ القطران يستر أجسادهم كالثياب ، وأنَّ قمصهم المتصلة بأجسادهم اللاحقة بهم نيران مشتعلة ، فالنار تحوطهم من كلِّ ناحية في أجسامهم .

وجوه المجرمين :

﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾

ولكن السرابيل أو القمصان لا تغطي الوجوه عادة ، فتجيء الحال الثالثة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ ، أي : النار تستر وجوههم كما ستر القطران الملتهب أجسامهم ، ووجه الإنسان هو أعزُّ شيء عليه في جسمه ، وهو أحرص ما يكون على حمايته ، وإذا كانت تغشاه النار ، فما بالك بسائر الجسم؟! كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ (الزمر:٢٤) ، المفروض في الإنسان أن يتَّقي بكلِّ شيء إلا بوجهه ، إنَّما أن يتَّقي بوجهه معناه الهلاك المحقَّق ، فهنا تغشى وجوهَهُم النار ، تعلوها وتُغطِّيها النار ، تُغطِّي هذه الوجوه وتعلوها النار .

الجزاء العادل :

﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾

لماذا هذا كلُّه؟ ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ (إبراهيم:٥١) ، هذا يومُ الجزاء العادل ، هذا يومٌ ينال كلُّ امرئ نصيبَهُ ممَّا يستحقُّه ، إنْ خيرًا فخير وإنْ شرًّا فشرٌّ ، لا تُظْلَمُ نفسٌ شيئًا ، ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ (الأنبياء:٤٧) ، يُحاسب كلُّ إنسان على الصغير والكبير ، والنَّقير والقِطْمير .

﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ ، ما عملت ، خصوصًا ما عملت من سُوءٍ ؛

لأنَّ المقام مقام وعيد ، لا يتحدَّث عمَّا عملت من خير ، كما في مقام آخر : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (آل عمران:٣٠) .

هناك في آل عمران : ﴿ مَّا عَمِلَتْ ﴾ ، وهنا : ﴿ مَّا كَسَبَتْ ﴾ ، ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (يونس:٥٢) ، ما كسبت الأنفس من سُوء ، يجزيها الله تعالى عليه ، فهذا يوم الجزاء على سُوء الأعمال ، كما قال تعالى : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف:٤٩) .

سرعة الحساب :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

الله سبحانه أسرعُ الحاسبين ، أيُّ سرعةٍ هذه؟ عرَف الناس سرعة الحساب في عصرنا عن طريق الكومبيوتر ، يسمُّونه الناس بالحاسب الآلي أو الحاسوب أو المحساب أو الحاسبة ؛ لأنَّه سريع الحساب !

هذا أرانا شيئًا من سرعة الحساب الإلهيِّ كيف يكون ، كيف يحاسب الملايين ، بل البلايين من أوَّل خلق آدم إلى يوم القيامة ، سوف يُحاسبهم في وقت واحد كيف؟

أرانا ربُّنا سبحانه بعض الآيات لنعرفَ كيف يكون الحساب يوم القيامة .

ومعنى أنه سريع الحساب : أنه ليس هناك مجال لأن يقول أحد : أمامي ألف

سنة أو أكثر حتى ينتهي الحساب ، وأنا مستريح إلى أن ينتهي . لا هو سبحانه سريع الحساب ، الحساب آتيك أسرع ما يكون ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

البلاغ الإلهي :

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾

ثم ختم الله سبحانه وتعالى هذه السورة ، أو هذا الشوط من السورة بهذه الآية الكريمة ، هذا البلاغ الإلهي : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، ﴿ هَٰذَا ﴾ ، إشارة إلى القرآن الكريم ، أو هو إشارة إلى سُورة إبراهيم ، أو هو إشارة إلى هذا الشوط من السورة ، من هذا القسم الذي فسَّرناه من قوله تعالى:﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (إبراهيم:٤٢) ، إلى آخر السورة ، كلُّ هذا محتمل .

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ ، يجب أن يُبلَّغ به النَّاسُ ، وقد بلَّغ الرسول ما أمره الله به : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (المائدة:٦٧) ، هذا بلاغٌ إلهيٌّ يجب أن تسمعه الآذان ، وتعيهُ القلوب ، هذا بلاغٌ للناسِ ، ولا يبلِّغ اللهُ الناس إلا ما يَهمُّهم ويُسْعدهم في دينهم ودنياهم ، ما ينتفعون به في الآخرة والأُولى ؛ لأنَّ الله ليس له حاجة إلى خَلْقِه ، الله سبحانه غنيٌّ عن العالمين ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (فاطر:١٥) ، الله يُبلِّغ خَلْقَه كلَّ ما فيه خيرهم ومَصْلحَتُهم في الدنيا والآخرة .

الإنذار بالبلاغ :

﴿ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾

﴿ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ ، لِيُخَوَّفوا به ، ليعلموا أنَّهم إذا عَصَوا اللهَ عزَّ وجلَّ ، فإنما ينتظرُهم هَوْلٌ أيُّ هَوْل ، وعذابٌ أيُّ عذاب ، من هنا جاء الإنذار ولم يُذكر التبشير ، ﴿ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ .

الحقيقة العُظمى :

﴿ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾

ليعلموا هذه الحقيقة التي أنزل الله بها الكتب ، وبعث الله بها الرسل ، وحقَّت بها الحاقَّة ، وقامت بها القيامة ، ووقعت بها الواقعة ، وقامت سوق الجنَّة والنار من أجل هذه الحقيقة العظيمة : أنَّ الله إلهٌ واحدٌ ، لا ينبغي ولا يجوز أن يُعبد إلا هو ، بهذا بُعِثَ كلُّ الرُّسل ، وبهذا نزلت كلُّ الكتب ، كما قال الله تعالى لرسوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٢٥) .

تذكُّر أولي الألباب :

﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾

يجب أن يتذكَّروا ما عليهم من واجبات نحو أنفسهم ، ونحو ربِّهم ، ونحو أُسرهم ، ونحو إخوانهم ، ونحو أمَّتهم ، ونحو الإنسانيَّة كلِّها ، بل نحو الكون كلِّه ، نحو الحيوان ، ونحو البيئة .. يجب أن يتذكَّروا هذا كلَّه ، الأنبياء جاءوا ليذكِّرونهم :

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية:٢١،٢٢) ، ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق:٤٥) .

لكن ليس كلُّ إنسان يتذكّر ، الذي يَتَذكَّر وينتفع بالتَّذكرة هم أُولو الألباب ، أصحاب العقول ، أما الذين فَقَدوا عقولهم ، أمَّا الذين ساروا وراء أهوائهم وشهواتهم كالأنعام بل أضلُّ سبيلاً ، هؤلاء لا ينتفعون بعقولهم ، إنما ينتفعُ بالعقول أُولو الألباب .

ذكر أولي الألباب :

والله سبحانه ذكر أولي الألباب في ست عَشرة آية من القرآن الكريم : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٧٩) ، ﴿ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (البقرة:١٩٧) ، ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (البقرة:٢٦٩) ، (آل عمران:٧) ، ﴿ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (آل عمران:١٩٠) ، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة:١٠٠) ، (الطلاق:١٠) ، ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (يوسف:١١١) ، ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (الرعد:١٩) ، (الزمر:٩) ، ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (إبراهيم:٥٢) ، ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (ص:٢٩) ، ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (ص:٤٣) ، ﴿ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (الزمر:١٨) ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (الزمر:٢١) ، ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (غافر:٥٤) .

أولو الألباب هم أصحاب العقول ، ذلك أنَّ دين الإسلام جاء يخاطب العقل أول ما يخاطب ، هذا الدين دين العقول ، الذين يزعمون أنَّ الدين يُغيِّب عقول الناس ـ يُخدِّر عقول الناس ـ حتى زعم الماركسيون : أنَّ الدين أفيونُ الشعوب ،

يُخدِّر الشعوب فلا تُفكِّر ، ولا تُدبِّر أمرَها ، ولا تعقل ما يجبُ عليها ، فإنْ صحَّ هذا في أيِّ دين مُحرَّف لن يصحَّ في دين الإسلام ، الإسلامُ جاء يخاطب العقول ، فهو دين العقل والنقل ، ولهذا ختم الله هذه السورة بهذه الكلمة : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [1] (إبراهيم: ٥٢).

ما أشدَّ حاجَتنا أن نتذكَّر ما ذكَّرنا الله به في هذه السورة الكريمة ، وفي هذا الشَّوْط الأخير من هذه السورة ، التي ينبغي حينما يقرأه المسلم أو يسمعه أن تذرفَ منه العيون ، وتَجِفُّ له القلوب[2] ، وتقشعر منه الجلود : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر: ٢٣) .

اللهمَّ أكرمنا بالقرآن ، وانفعنا بالقرآن ، واجعلنا من أهلك أهلِ القرآن ، أهلِ الله وخاصَّته ، واجْعَلنا من الذين يستمعونَ القول فيتَّبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهُم الله وأولئك هم أُولو الألباب ، وصَلِّ اللهمَّ على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا .

* * *

---

(١) انظر كتابنا : (العلم والعقل في القرآن) .

(٢) اضطربت له القلوب .